الفصل الأول

الفلسفة وعلم الكلام

« اتَّبِعوا ولا تَبتدِعوا ؛ فقد كُفِيتم »..

وقد اتبع سلفنا الصالح هذه النصيحة النبوية المعلَّلة : فلم يحاولوا - قَطُّ - الابتداع . وما يتأتى - قَطُّ - أن ينشأ الابتداع فى الأوساط الدينية السليمة ، الأوساط التى تكوَّن لديها الشعور الدينىّ الحىّ بالأسوة الحسنة ، والفهم الواعى للروح الدينية الخالصة .

وقد تهيَّأ لسلفنا الصالح التأسِّى بالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتهيَّأت لهم تلاوة القرآن ، فى تدبُّر وفهم ، ففصلوا - فى صورة حاسمة - بين ما يتأتى للإنسان أن يسير فيه على ضوء التجربة ، وأن يبتدع فيه ويخترع ، وينسِّق ويؤلِّف (وهى الأمور التى تتصل بالمادة والحسِّ ، وتتصل بعالم الطبيعة : أرضه ، وسمائه ، وما بين أرضه وسمائه) وبين ما لا يتأتى للإنسان أن يصل إلى معرفته إلا ظنًّا ، أو وهماً (وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر) .

وهذان العالمان - عالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق - كانا باستمرار موضوع جدل ، ومثار نقاش بين الذين يريدون أن يصلوا إلى حقائقهما عن طريق العقل المجرَّد الذى لا يستند إلى دين.

وانقسم العقليون - منذ أن دار البحث فى هذه المسائل عقليًّا- إلى فريقين : فريق يثبت ما وراء الطبيعة والأخلاق ، وفريق ينكرهما.

وانقسم المثبتون إلى طوائف لا تكاد تُحصَر ، وكل طائفة تنتسب إلى زعيم ترى أنه العبقرى على الإطلاق ، الموفَّق فى كل ما يأتى وما يَدَع ، المُصَدَّق فى كل ما يُشير به أو يُعلِّل له .

وكان من الطبيعى ـ والأمر كذلك ـ أن تعلن كل طائفة ، الحرب على الطائفة الأخرى ، مكذِّبةً مُستجهِلةً لها ، راميةً زعيمها بالغباء والجهل .

(أ) ومن البديهى أن السبب فى هذا النزاع : هو أن كل زعيم يختلف عن الآخر فى الصورة التى يرسمها بعقله ، لعالم ما وراء الطبيعة ، ولأسس الأخلاق ومبادئها .

(ب) ومن البديهى أن سبب هذا الاختلاف فى ما وراء الطبيعة والأخلاق إنما هو اختلاف العقول فى فطرتها وجِبلَّتها ، واختلافها بسبب الفطرة الموروثة ، وبسبب البيئة الطبيعية ، والبيئة المنزلية ، واختلافها بحسب الثقافة : كَمِّها وكيفها ، واختلافها بحسب مؤثرات وظروف وملابسات لا تكاد تدخل تحت حصر .

إن نوع الطعام ودرجة الحرارة ، ودرجة نقاء الهواء ، ودرجة ارتفاع المكان الذى يعيش فيه الإنسان ، وقربه أو بعده عن شاطئ البحر ، والوظيفة ، والعمل، والأصدقاء .. إن كل ذلك له تأثير على تفكير الإنسان ارتفاعاً وانخفاضاً وعمقاً وضحالةً ، ومن الطبيعى - والأمر كذلك - أننا لو ربطنا المعرفة الخاصة بعالم ما وراء الطبيعة وعالم الأخلاق بالعقل - وشأنه كما بيَّنَّا - لربطناهما بأساس يتأرجح ويتذبذب ولا يستقر على قرار .

(جـ) وقد حاولت الإنسانية ، منذ أن بدأت تفكر عقليًّا فى الإلهيات والأخلاق ، أن تخترع مقاييس وموازين ـ عقلية ـ تقيس بها الصحة والخطأ فى هذين العالمين ، فكانت النتيجة إخفاقاً متتابعاً .

لقد أخفق منطق أرسطو ـ منطق القياس ـ فى معرفة حقائق الإلهيات والأخلاق .. وكانت أخطاء أرسطو فى هذين الميدانين لا تُحصَى ، ولكثرتها ولعنف الهجوم عليها : يئس تلاميذ أرسطو - وهم أيضاً فلاسفة - من إصلاحها ، وانهزموا فى ميدان الدفاع عنها.

وأخفق منطق فرنسيس بيكون ـ منطق الاستقراء ـ فى الكشف عن عالم الغيب وعالم الخير والشر . وما كان يتأتى له أن يكشف عنهما ، وهو منطق

الكشف عن القوانين المادية ، وتبيُّن الحقائق فى عالم الحِسّ : عالم الكون والفساد، ولم يتطاول - قَطُّ - إلى كشف الحقائق فى عالم البقاء والخلود .

وأخفق منهج ديكارت ، ولم يرضَ عنه كثير من معاصريه من الفلاسفة ، ولم يرضَ عنه كثير ممن أتى بعده منهم ، وهاجموه فى حياته وبعد مماته .

وبقيت حقائق ما وراء الطبيعة والأخلاق ، بعد ديكارت - كما كانت قبله - موضوعاً للجدل العقلى الذى لا ينتهى .

والملاحظ ـ على كل حال ، منذ أن بدأ التفكير العقلى فى الإلهيات والأخلاق ـ أن السنوات تتوالى ، وعشرات السنوات ، وعشرات القرون ، ولم تنتهِ الإنسانية « عقليًّا» إلى حلِّ هذه المسائل.

إنها لم تنتهِ إلى حلِّها « عقليًّا » فى الغرب ، ولم تنتهِ إلى حلِّها «عقليًّا» فى «الشرق» ، ولم تُوفَّق إلى حلِّها فوق قمم الجبال ، ولم تصل إلى حلِّها على شواطئ البحار .

(د) إن المعنى الذى نستنتجه من ذلك كله ـ وهو استنتاج يقرب من أن يكون بديهيًّا ـ أن حل مشاكل ما وراء الطبيعة والأخلاق ، عن طريق العقل : مستحيل. .

وأن وضعها ـ إذن ـ موضع البحث العقلى : خطأ ..

وأنه يجب أن تعيد الإنسانية النظر فى اختصاصات القوى والملكات البشرية.

وإذا أعادت الإنسانية النظر فى اختصاصات القوى والملكات البشرية ؛ فإنها ستجد لا محالة : أن الوضع القديم - الوضع الذى كان قبل نشأة هذا اللون من البحث العقلى عند الإغريق - هو الحكمة بعينها .

وهذا الوضع القديم : هو الذى أعاده الإسلام ، واتَّبعه المسلمون ، فى القرن الأول الإسلامى ، واستمر منذ بدأ الإسلام إلى نشأة « المعتزلة » ..

أما هـذا الوضـع ؛ فهو أن لكل قوة مـن القوى الإنسانيـة اختصاصـاً معيَّنـاً

لا يتأتى أن تتعداه ، فقوة الحِسِّ ميدانها الطبيعة ، بل الظاهر المُحَسُّ من الطبيعة .

إن ميدانها : الألوان ، والأصوات ، والروائح ، والطعوم ..

إن ميدانها : الإحساس الجسمانى فى الجسم البشرى وفى خارجه..

وهو ميدانها فى الحدود التى رسمها اللَّه تعالى لها .

وميدان العقل ودائرته ، إنما هو الفهم الواعى لما يُلاحَظ ويُشاهَد ويُحَسُّ ، ثم الاستنتاج والاستنباط مما يُلاحَظ ويُشاهَد ويُحَسُّ .

فإذا كان الأمر أمر غيب ومساتير ، فليس للعقل فى ذلك رأى ولا اختراع ولا ابتداع ، وكل ضرب من ذلك يقوم به العقل إنما هو خبط عشواء ، وسير فى متاهات ، وسياحة فى صحراء ـ دون مرشد ـ لا علامات فيها ولا أدلة .

ومن هنا كان هذا النتاج الفلسفى الضخم ـ فى ما وراء الطبيعة والأخلاق ـ يشوبه الوهم فى الكثير من أُسسه . .

وفى الكثير من نتائجه ..

ولا يمكن الاهتداء « عقليًّا» إلى ما فيه من الصواب الثابت ، أو الخطأ والانحراف .

ولكن الإنسان ، ليس حِسًّا وعقلاً وحسب ، بل ليس الإنسان إنساناً بحسِّه وعقله ؛ فقد ينزل به حسُّه وعقله إلى المستوى الحيوانى البحت ، فيعيش عيشة السائمة ، بل قد ينزل به حسُّه إلى مستوى أقل من المستوى الحيوانى ، ويصير من هذه الطائفة التى ينطبق عليها قول الله تعالى :

﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[1] .

الإنسانُ ـ إذن ـ إنسانٌ : بروحه الشفافة ، ونفسه الزكية ، وبصيرته المضيئة ، إنه ذلك الذى تزكَّى ، إنه الذى صَفَتْ روحه صفاء يقرِّبه من الملائكة .

---

(١) سورة الفرقان : ٤٤ .

وإذا صَفَتِ الروح وتَزكَّتِ النفس زال عن البصيرة ما تراكم عليها من صدأ كان يحجبها باستمرار عن أداء وظيفتها ، وإذا تَزكَّتِ النفس أصبحت محلًّا للإلهام وللمعرفة المستنيرة فى عالم ما وراء الطبيعة ، وعالم الخير والشر .

وفهم الحكماء القدماء ـ قبل العصر اليونانى ـ ذلك فلم يستعملوا - قَطُّ - الجدل أو القياس ، أو الابتداع العقلى والاختراع المنطقى وإنما استعملوا ـ من أجل معرفة الإلهيات ـ التنسُّك والعبادة والذكر واستخلاص النفس لله ، أو ـ بالتعبير القرآنى ـ التزكية . كانت تزكية النفس ـ إذن ـ وسيلتهم إلى المعرفة، وكلما زادت تزكية النفس أصبح الشعور بعالم ما وراء الطبيعة وأصبح التمييز بين الخير والشر ميسوراً واضحاً .

(هـ) وسبيل تزكية النفس هذا من أجل المعرفة : سبيل فهمه الكثير من الألمعيين فى العصر اليونانى ، ومما لا شك فيه أن بذوره الأولى جاءتهم من الشرق ..

لقد كانت فرقة « الأورفية » فى العصر اليونانى الأول تمثِّل هذا الاتجاه تمثيلاً واضحاً .

وكانت « الفيثاغورية » - من بعدها - تسير فى هذا الطريق ، وتؤمن أنه الوسيلة الصحيحة للوصول إلى عالم الغيب : لقد كان الجانب التنسُّكى ، وكانت العبادة ، وكان الذكر .. كان كل ذلك وغيره - مما يتصل بوسائل استخلاص النفس لله - شيئاً عاديًّا فى «الفيثاغورية» ..

لقد كانت «الفيثاغورية » تصفية نفس وتطهُّراً أخلاقيًّا ، وكانت ابتعاداً عن الرجس ، وانغماساً فى عالم الخير ، وكانت ـ بعبارة مختصرة- تطهيراً للباطن والظاهر .

وجاءت « الأفلاطونية» ..

وكان «أفلاطون » يصطفى من تلاميذه : ذوى النفوس الشفافة والشعور

المرهف ، وهم قلة قليلة ، فيسلك بهم سبيل التنسُّك ، سبيل التزكية .

وعلى إثر ذلك جاءت «الأفلاطونية الحديثة» التى تنتسب إلى «أفلوطين المصرى» ، والتى بلغت بطريق التنسُّك والتزكية شأواً بعيداً.

ولكن الجانب الحيوانى فى الإنسان كان يجره باستمرار إلى الإخلاد إلى الأرض ، واتِّباع الهوى ، ولم يكن طريق التطهُّر والتزكية من السهولة بحيث يلجه كل طارق .

إن الارتفاع بالنفس سبيلٌ شاقٌّ ، ومن أجل ذلك عدلَ الشطر الأكبر من اليونان عن طريق التزكية إلى طريق الجدل العقلى ؛ فكانت الفلسفة العقلية اليونانية ، وكان الانحراف عن الطريق السليم .

والذى تولَّى كِبْرَ ذلك ، ودعم أركانه ، وبلغ به القمة ، إنما هو «أرسطو» .

ومما لا مماراة فيه ، أن الانحراف فى البحث عما وراء الطبيعة يدين بالكثير - أو بالأكثر - إلى أرسطو .

وأخفق أرسطو فيما وصل إليه من نتائج عما وراء الطبيعة ..

وأخفق الذين تابعوه ..

وأخفق الذين أتوا من بعدهم .

وترى الإنسانية هذا الإخفاق المتتابع ، ولكن المحاولات - لمعرفة الغيب عن طريق العقل - لم تنتهِ بعد ..

ومع ذلك فقد كان عند الكثير من مفكرى اليونان حَدَسٌ صادقٌ بالوضع الصحيح فى مثل هذه الأمور ، لقد كانوا يؤمنون بأن الفكرة الصحيحة عن عالم الغيب وعن الأخلاق ؛ إنما تتأتى عن طريق رسول يتلقَّى عن الله الوحى ليبلِّغه إلى بنى البشر. والقصة التالية توضِّح هذا الشعور لديهم ..

فقد اجتمع - كما يقص أفلاطون - سقراط واثنان من الفيثاغوريين هما

سمباس ، وقابس ، وأخذوا يتحدثون عن خلود النفس ، والاستدلال - عقليًا - على بقائها ، فلا يكاد يستقيم لهم الدليل فى وضوح وثبات ، ثم « يسكت سقراط ويسكت الجميع ».

وبعد هنيهة يقول سمباس : « إن العلم بحقيقة هذه الأمور ممتنع أو عسير جدًّا فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن - اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل . فيجب إما الاستيثاق من الحق ، وإما - إن امتنع ذلك - استكشاف الدليل الأقوى ، والتذرُّع به فى اجتياز الحياة ، كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح من خشب ، ما دام لا سبيل لنا إلى مركب أمتن ، أعنى : إلى وحى إلهى » .

المركب الأمتن الآمن- إذن - إنما هو الوحى الإلهى ، أما العقل فَمَثَلُ مَنْ يتذرَّع به كَمَثَلِ مَنْ يخاطر بقَطْع البحر على لوح من خشب .

لقد حاول اليونانيون -إذن- البحث العقلى ، لاجتياز خضمٍّ ما وراء الطبيعة، لأنه لم يكن لديهم وحى يرجعون إليه فى الهداية والإرشاد ، ولو كان لديهم هذا الوحى لما اختاروا العقل به بديلاً ، ولما كانت الفلسفة اليونانية العقلية، ولبقى توزيع اختصاصات القوى الإنسانية والملكات البشرية على استقامته الأولى :

- **الحِسُّ لعالم الطبيعة .**

- **والعقل للاستنتاج مما يأتى به الحِسُّ .**

- **أما الروح والبصيرة فإنها لعالم الغيب ، وعالم الخير .**

ولقد تأثر علم الكلام الإسلامى بالتيار العقلى اليونانى فى نهجه العقلى ، وفى اتجاهه الاختراعى الابتداعى ، وكان علم الكلام بذلك « فلسفة »: يرتطم بكل ما يعترض الفلسفة من عقبات ، وأضاعَ - بمقدار قربه من الفلسفة - ما كان ينبغى له من قداسة ، وكان بابتعاده عن النهج القرآنى السليم الفطرى مثيراً

لكثير من المشاكل التى تفرِّق المسلمين وتجعلهم فِرَقاً وأشياعاً متنافرين متخاصمين..

ومع ذلك فإن العودة إلى النهج السليم ميسورة ، وعلى قادة المسلمين فكريًا ودينيًا أن يساهموا فى إيضاحه .

* * *